# فاس في ظل أزمة الثلاثين سنة
# 1727 ـ 1757م

**عبدالله العماري**

كلية الآداب ـ سايس فاس

أدت وفاة المولى إسماعيل سنة 1727 م إلى اندلاع أزمة خطيرة كادت تأتي على وحدة المغرب، و تعيده إلى الانقسام والتجزئة التي عمل الشرفاء العلويون على القضاء عليها ،و في مقدمتهم السلطان المولى إسماعيل الذي حقق الوحدة، والاستقرار، والأمن لربوع البلاد الممتدة من تلمسان شرقا إلى المحيط غربا،و من تخوم الصحراء جنوبا إلى المتوسط شمالا[1] و ما أن توفي حتى طلت الخطوب و الفتن برأسها ،و كان السبب الأول فيها:جيش العبيد أولا و أبناء السلطان المولى إسماعيل المتنافسين على الحكم من جهة ثانية.

لقد أسس السلطان المولى إسماعيل جيش العبيد و كثر عدده، و مكن له من الثروات[2]و قهر بواسطته كل الثوار، و بنى له القصبات على امتداد البلاد لمواجهة القبائل الثائرة. و لكن هذا الجيش العرمرم ـ كما سماه أكنسوس ـ سرعان ما تحول من عنصر وحدة و استقرار في حياة مؤسسه ،إلى أداة خراب، و فوضى، و فساد، عند وفاته.[3]ذلك أنه استغل تنافس أبناء السلطان على العرش و أضحى له الكلمة الفصل في التولية والعزل دون مراعاة شروط الكفاءة [4]، وظل

---

[1] انظر حدود المغرب في هذا العهد كما نقلها الناصري عن اليفرني في ، الناصري ، الاستقصا ، تحقيق و لدي المؤلف ، دار الكتاب البيضاء 1956 ج7 ص101. يقول الضعيف " و كانت طاعته قد عمت جميع المغرب إلى تلمسان ، و جميع بلاد الصحراء و توات و فقيق و أطراف السودان و على تيغاز و سوس الأقصى ."
الضعيف الرباطي ، محمد ، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة ) تحقيق ذ.أحمد العماري دار المأثورات الرباط 1986 ص 98.

[2] بلغ عدده عند وفاة السلطان المولى إسماعيل 150 ألف رجل . انظر ، الناصري م.س. ص 191.

[3] تأسيس هذا الجيش من طرف السلطان المولى إسماعيل يشبه إلى حد كبير ما قام به المعتصم العباسي لما أسس جيش الأتراك . و نفس الأدوار التي قام بها هذا الجيش في حياة مؤسسه أو عند وفاته هي التي قام بها حيش عبيد البخاري . وقد أشار الناصري إلى هذا التشابه بين الجيشين و ما مثلاه من أدوار .الناصري ، م.س. ص 59.

[4]- انظر شروط الكفاءة الواجب توفرها في الحاكم عند الماوردي ، الأحكام السلطانية و الولايات الدينية ،دار الكتب العلمية بيروت ص 6 وما بعدها .
ابن خلدون عبد الرحمن ، مقدمة ابن خلدون ،دار الكتب العلمية بيروت ط.1 / 1993 ص 151 ـ 152 .

العامل المرجح لمبايعة هذا أو ذاك من الأمراء السبعة[5] هو المال، فمن أغدق عليهم الأموال والهدايا وزادهم في الرواتب بايعوه وحافظوا على ملكه، و من أنقصها، أو آثر عليهم أنصارا آخرين من القبائل ثاروا عليه وعزلوه . وفي هذا يقول الناصري نقلا عن الزياني في البستان الظريف :" كان مآل العسكر البخاري مع أولاد أمير المؤمنين المولى إسماعيل رحمه الله مثل مآل الترك مع أولاد المعتصم ابن الرشيد العباسي في كونهم استبدوا عليهم و صاروا يولون ويعزلون و يقتلون و يستحيون إلى أن تم أمر الله فيهم و تلاشى جمعهم وتفرقوا في البلاد شذر مذر ."[6] وعلى هذا الأساس بويع الواحد منهم أكثر من مرة وعلى رأسهم السلطان المولى عبدالله الذي بويع سبع مرات[7] .

في ظل هذه الظروف عاش المغرب وضعية خاصة هي التي يسميها الباحثون " أزمة الثلاثين سنة " أو " أزمة العبيد"، شاعت خلالها الفوضى في المدن والقرى على حد سواء و لم يعد هناك من وازع سوى وازع القوة و المال.

أما **فاس** موضوع المقال فلم تخرج عن هذا الوضع، فقد أصابها ما أصاب ربوع البلاد من عدم الاستقرار، وعانت الأمرين طيلة هذه الفترة . وكان السبب في ظهور فاس وتركيز المصادر على وضعها دون غيرها عاملان اثنان : الأول **علماؤها** و الثاني **مالها** . و قد لعب كل عنصر من هذين العنصرين دورا بارزا في تصدر فاس المكان الأول خلال فتنة العبيد .

بالنسبة **للعلماء** كان دورهم حاسما في ترجيح كفة هذا الأمير أو ذاك، ذلك أن بيعتهم كانت تعتبر أساسية لكل سلطان جديد. فالعبيد يولون أولا وعلماء فاس يؤكدون ذلك ببيعتهم .فعلى امتداد عصر الفتنة كانت ثلاث جهات تحدد مصير السلطان : العبيد ينصرونه على السلطان السابق ، وعلماء فاس يعلنون بيعته على منبر القرويين ، والقبائل المناصرة تحمي ظهره من القبائل الثائرة .[8] و لذلك لا نجد في المصادر إلحاحا على بيعة حاضرة أخرى مثل التأكيد على بيعة علماء فاس. فرغم مكانة مراكش و كونها عاصمة سابقة للمغرب فإن بيعتها لأي سلطان لم تكن لها القوة إلا لما تؤكد ببيعة أهل فاس . و لذلك ما كان العبيد يعلنون سلطانا جديدا حتى يهرع

---

[5] – الأمراء السبعة الذين تعاقبوا على الحكم في عهد الأزمة هم : أحمد الذهبي، عبد الملك، عبدالله، علي الأعرج، محمد بن عربية، المستضيء، زين العابدين .

[6]- الناصري ، م.س. ص 59 .

[7] - المصدر السابق ص 183.

[8]-في عهد السلطان مولاي عبد الله كانت القبيلة المناصرة هي قبيلة الودايا باعتبار أن أمه كانت مغافرية و تنتسب لهم ففي إحدى المرات التي ثار عليه فيها العبيد و هموا بعزله استصرخ بالودايا قائلا : " إن كانت لكم حاجة بابن أختكم عبدالله فاقدموا عليه الساعة ." الناصري م.س. ص 175.

إلى فاس للحصول على بيعة أهلها إما طواعية أو عنوة ، والأسلوب الأخير هو الذي جعل أهالي المدينة يقاسون أكثر من غيرهم كما سنتطرق له في حينه .

أما **المال** فهو العنصر الثاني الذي كان مصدر شقاء فاس .فمعلوم أن هذه المدينة تقع على أكبر المحاور التجارية ومن ثمة تكونت بها طبقة ثرية تكسب الأموال و تتـاجر فيهـا. ومـادام العصر عصر العبيد الراغبين في المال، فقد كان كل سلطان جديد يوفر ما يسد به طمعهـم مـن مصادرة أهل فاس وفرض المغارم الثقيلة عليهم.

ويمكن وصف حالة فاس خلال هذه المرحلة في النقط التالية :

**محنة العلماء**

لقد كان لعلماء فاس مكانة خاصة لدى سلاطين الدولة المغربية و من ثمة كانوا يلجـأون إلى استفتائهم في كل الأمور التي تعرض عليهم في أمور تسيير البلاد ، ناهيك عن التعويل على بيعتهم .

ولما كان السلاطين يعملون على التقيد بشروط البيعة و على رأسها العدل وأخذ الأمـوال بحقها والجهاد لتحرير الثغور ،[9] فقد كانوا لا يقطعون في أمر هام إلا بعد أخذ رأي الفقهاء فيـه. ومن الأمور التي طرحت نفسها في عهد المولى إسماعيل كان هو تأسيس جيش العبيـد وجمـع أفراده من ربوع مملكته. وللوصول إلى هذا الغرض عرض مسألة تمليك العبيد على العلماء فمن قال بحقه في ذلك سلم، ومن اعترض على رأي السلطان امتحن وعزل بل و قتل[10].

وكان على رأس المعذبين الذين وصل الحد إلى استصفاء أموالهم وتشريد أهليهم و قتلهم في الأخيرالفقيه الفاسي **عبد السلام جسوس.**[11]

لم تكن محنة جسوس آخر المحن بفاس، بل إن عصر الفتنة جعل علماء فاس في الواجهة سيما و أن العامة كانت تنقاد لرأيهم و تسير على مذهبهم، فمن بايعوه اعترف به العوام، و مـن نقضوا بيعته ثاروا عليه وأخرجوه من مدينتهم. وبتصفح المصادر التي أرخـت للمرحلـة نجـد السلاطين يقفون بشدة على رأي علماء المدينة، وكل رفض من جـانبهم كـانوا يقابلونـه بأشـد العذاب.

---

[9]- انظر هذه الشروط في رسالة من الحسن اليوسي إلى السلطان المولى إسماعيل ، القادري ج3 ص 32

[10]– انظر توبيخ المولى إسماعيل لعلماء فاس لعدم مصادقتهم على تمليك العبيد .القادري ، محمد بن الطيب ، نـشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني ، تحقيق حجي و توفيق ، الرباط 1986 ج3 / 79، 117،205 الـضعيف ص 82.

[11] طرحنا هذه المسألة رغم كونها سابقة للفترة المدروسة للتـأكيد على رأي علماء فاس في مهمـات الأمـر لـدى السلاطين المغاربة على مر العصور . عن محنة الفقيه جسوس ومالقيه من العذاب ، انظر القادري، المصدر السابق، ص،205، 207 ــ 208 .الناصري ،ج7 ص 94 ــ 95 .الضعيف ،82ــ 86.

ولذلك لا غرابة أن نجد المدينة تخضع خلال هذه المرحلة لكثير من المحن،و السبب في ذلك معارضة العلماء ، فزيادة على سجن الزعماء، و قتل بعضهم، عانت الحاضرة الفاسية وقاسى أهلها أشد العذاب ، ويتجلى ذلك فيمايلي :

**محاصرة المدينة ومصادرة أهلها وقتل بعض و جهائها.**

كان نهم جيش البخاري [12] وراء تصرف السلاطين وعملهم على ايجاد المال بكل الطرق لتوفير . الرواتب وأداء مال البيعة للبقاء على كرسي الحكم، وكل من أنقصها، أو تماطل في دفعها، أو غلبته قلة ذات اليد، يكون مآله الفرار من عاصمة الملك وترك العرش لمن يدفع أكثر من الأمراء. وطالما أن أهل فاس عرفوا بالأموال والتجارة ،فقد كانت أنظار السلاطين تتجه إلى إنزال المغارم الثقيلة عليهم، ومصادرة أموالهم كلما احتاجوا. ويمكن القول أنهم زاغوا عن شروط البيعة وأصبحت الغاية (العرش) تبرر الوسيلة (المصادرة).

ويكفينا الإشارة إلى بعض النماذج الموضحة لهذا الفعل باعتبار أن الرغبة في أموال أثرياء المدينة تكررت في عصر كل سلطان من سلاطين الفتنة[13]. فقد أمر السلطان المولى عبدالله عامله على المدينة محمد بن يشي الزموري سنة 1143 هـ بمصادرة أهل المدينة بقوله:" خذ منهم المال واطرحه في وادي أبي الخراريب ولا تتركه لهم ، فما أطغاهم إلا المال حتى استخفوا بأمر الملك ." [14]فما كان من الوالي إلا أن جمع أغنياء المدينة وسجنهم، و فرض عليهم المغارم الثقيلة، ومن تباطأ سجن ولده و أهله حتى يفي بما فرض عليه . ولم يسلم من مغارمه أرباب الحرف والفلاحين وأهل اليسار عامة، حتى هاجر الكثير من الأغنياء إلى مصر والسودان والشام، وظل الأمر على هذا الحال ثلاثة عشر شهرا وكل ما جمعه كان يبعثه إلى السلطان بمكناس .[15]

أما السلطان محمد بن عربية الذي بويع بعد أخيه عبدالله سنة1149 هـ ـ وفي ظل حاجته الشديدة للمال بعدما أعيته الوسائل لسد افواه العبيد [16]ـ فقد فرض على أهل فاس الأموال

---

[12] من أمثلة هذا النهم ما قام به العبيد سنة 1159 هـ ، ذلك أنه لما عجز السلطان المولى عبدالله عن دفع رواتبهم وفر إلى فاس قاموا بنهب قصره بمكناس " فأخذوا يقلعون في الدفف و الرخام و الجوائز و يبيعون ذلك ." انظر، الضعيف ، م.س. ص 154 .

[13]- يستثنى من ذلك السلطان علي الذي أمر عامله على المدينة لما بايعه أهلها سنة1147 هـ بعد أخيه عبدلله بالاكتفاء بالزكوات والأعشار الشرعية و ما جرت به العادة من الهدايا الخفيفة و لكن العامل لم يحترم هذه الأوامر وصار في الناس سيرة سيئة و صادر أموالهم . الاستقصاج7 ص 137 ـ 139 .

[14]- الاستقصا ج7 ص 134 .انظر عن محاصرة المدينة ومصادرة أهلها ، الضعيف ، م.س.ص 112.

[15]- نفسه ص 135 .

[16]- انظر إطلاق الأيدي بنهب أموال المسلمين و فتحه للمطامير و الأهراء بمكناس و مصادرته لأهل المدينة ، الناصري ج7 ص 144.

الطائلة، فمن أوفى بقي بداره ، ومن رفض " يخرج في البعث "[17]، أي يسير مع جيش السلطان إلى الجبهات المفتوحة وما أكثرها في مختلف الجهات "فاحتار لناس في أمرهم "، وتم القبض على بعض أثرياء المدينة منهم الحاج أبي جيدة برادة الذي صودرت أمواله وبيعت أصوله و تم قتلـه في الأخير. ونفس الكأس تجرعها المدعو عديل ، وسار أخو السلطان ـ المسمى المولى الوليد ـ على نفس النهج مع أهل الزوايا والأثرياء عامة حتى وصل إلى مبتغاه.[18]

وتكفينا الإشارة إلى حدث **ذي دلالة كبيرة** في ميدان المصادرة . فقد كانت رغبة عبيـد البخاري في المال من أكبر الضغوط على سلاطين المرحلة و لذلك لجأوا إلى اسـتخراجها مـن الناس بكل الوسائل، ولم يسلم منها حتى نساء القصر هن السيدة أم السلطان المولى عبدالله خناثة بنت بكار التي قبض عليها ربيبها علي الأعرج لما آلت إليه السلطنة بعد أخيه عبدالله سنة 1147 هـ ، وأودعها السجن، وصادر أموالها، ونهب دارها، واستولى على ما فيها،[19] " وكانـت هـذه الفعلة معدودة من هناته "[20]

أما السلطان المستضيء الذي بويع سنة 1151 هـ ـ بعد القبض على أخيه محمد بن ربية ـ فقد زاد في مصادرة أهل فاس والقبض على أشرافها وأثريائها واستصفاء أموالهم، واضطره الحال بعد كل هذا إلى بيع أنقاض قصوره بمكناس لتوفير المال .21 وهذا أكبر مؤشر على ضغط العبيد وكونهم من وراء كل التجاوزات التي عانى منها الفاسيون وغيرهم من الرعايا

__تعيين الولاة الشداد الغلاظ على فاس__ .

من أشهرالولاة الذين شاع ذكرهم السيء بالدينة أسرة الروسي التي تعاقـب عـدد مـن أفرادها على حكم فاس، وكذا الوالي ابن يشي الزموري .

بالنسبة لأسرة الروسي لها تاريخ طويل في فاس واشتهر أفرادها بالفظاظة والقسوة فـي معاملة سكان المدينة قبل الأزمة [22] وخلالها، ومن ثم كانت ساكنة المدينة دائمة التربص بهـؤلاء

---

[17]- الناصري السابق ، ص 145 .

[18]- الناصري ج7 ص 145.يقول الضعيف عن مصادرات هذا السلطان " قبض السلطان سيدي محمد ولد عربية على كثير من الناس و فرض عليهم الأموال الثقيلة ، و نهب ديارهم و أموالهم إلى أن ساء حال المدينة حتى لم يبق للناس لا زرع و لا درهم و لا متاع ، و مات كثير من الناس بالجوع ، ... وكان و بالا على مدينة مكناسة و فاس وعلى زرهون و من جاورهم من القبائل من الناس ." الضعيف ، ص122.

[19] - الضعيف ، ص 116 .الناصري ، ص 138.

[20]- الناصري ، م.س. ص ، 138 .

[21]- الناصري نفسه ، ص 148 ـ 149 .

[22]- في سة 1134 هـ بعث السلطان المولى إسماعيل عامله حمدون الروسي لقبض أربعين قنطارا من المال من أهل فاس إثر غضبه عليهم .القادري ، النشر ج3 ص 261.

وقتلت بعضهم. ونظرا لهذا العناد المتبادل فقد شاع آنئد المثل القائل " لا يصلح للفاسي إلا الروسي " بمعنى أن آل الروسي هم الذين يركعون جباه أهل فاس كما فعل الحجاج الثقفي مع أهل العراق. فقد قام حمدون الروسي والي المدينة من قبل السلطان المولى عبدالله بقتل عدد من أعيان فاس ومعارضيهم وأمر بجر رجلين منهم بدروب المدينة. وهدم أبواب فاس وحمل مصاريعها إلى فاس الجديد .[23]

أما مسعود الروسي فقد تخطى أوامر السلطان علي لما أمره بالرفق بأهل فاس والاكتفاء منهم بالزكوات و الأعشار ، وبالغ في التنكيل بأهل فاس وقتل رئيس اللمطيين وأمر بجره إلى باب الفتوح ثأرا منه، لأن الأخير هو الذي قتل أخاه أبا علي الروسي عند وفاة السلطان المولى إسماعيل[24] فما كان من ساكنة المدينة إلا إعلان الثورة على عاملهم، الذي فر وترك فاس تحت حكم أهلها، فهدموا السجن وأطلقوا سراح من فيه وقتلوا كل المنتسبين لمسعود الروسي ، ولم يعودوا إلى الصلح مع السلطان إلا بعد جهد جهيد وتعيين عامل جديد من اختيارهم .[25]

ولم يكن محمد بن علي بن يشي الزموري أحسن حالا مع أهل فاس رغم أن السلطان المولى عبدالله عينه على المدينة خلفا لحمدون الروسي سنة 1142 هـ لما فر الأخيربجلده إلى زرهون إثر العفو السلطاني بعدما نال من أهل المدينة. فكان الوالي أكثر شدة و فضاضة من سابقه حتى أجبر عسفه الكثير من سكان المدينة على هجرها و استبدالها بوطن الغربة في الشام ومصر و السودان .[26] وقد ذكر القادري أن هذا الوالي بالغ في مصادرة تجار المدينة، وفرض[27] عليهم المغارم الثقيلة، ووصل به الحد إلى القبض على النساء وتعذيبهن العذاب الشديد وقتل الكثير من وجوه البلد وكان على شاكلته ابن زيان الأعور نائب عامل فاس في عهد المولى المستضيء الذي بطش بأشراف فاس وانتقم لمنيبه منهم واستصفى أموالهم وبالغ في مصادرتهم .[28]

## وصف لحالة فاس زمن الفتنة :

يبدو من خلال ما سبق أن أوضاع فاس خلال الفتنة كانت مزرية جدا، وعانى أهلها أكثر من غيرهم بسبب عنادهم، والوقوف في وجه السلطة المركزية آنئد، إما بنقض البيعة أو الامتناع

---

[23]– نفسه 133. الضعيف ص 112.
[24]– الناصري ، م.س. ، ص 138 . القادري ، النشر ج3 ص 291، 371.
[25]– الناصري ، ص 139.قام أهل فاس بقتل مسعود الروسي لما عين عليهم من قبل السلطان المولى عبدالله سنة 1149 هـ .انظر القادري ، النشر ج3 ص 393.
[26]– نفسه ، ص 137 .
[27]– (5) القادري ، النشر ، ج3 ص 355 ـ 356 .
[28]– نفسه ص 149

عن أداء المفروض عليهم من الغرامات. وبالمقابل عوملوا بالأسلوب نفسه، وكانت الفظاظة والغلظة الأسلوب الأمثل لمواجهة عنادهم ، ونسوق فيما يلي نصا للقادري يصف فيه حالة المدينة سنة 1150 هـ وما عانته من خراب وخوف بعدما كانت آمنة مطمئنة قبل بقوله : " ... وارتفعت الأسعار فبلغ القمح نحو ثلاث أواق ونصف قديمة للصاع النبوي، وجعل اللصوص يهجمون على الناس في ديارهم ليلا ويقتلونهم وهم يستغيثون فلا يغاثون ... وانعدم الحطب من فاس فأكثر الناس الهدم في الدور لأخذ الخشب لطبخ ما يتقوتون به، وخلا من السكنى نحو الثلثين من فاس بالجوع والفرار عنها، وتخرب أكثر من ذلك من دورها وحوانيتها وغير ذلك ..."[29] هذه صورة من صور معاناة فاس خلال الفتنة تكررت عدة مرات قبل هذه السنة وبعدها وقد أوردنا هذا النص لكونه يعبر عن واقع المدينة أحسن تعبير .

والجدير بالذكر أن حالة **فاس** زمن الفتنة كانت نشازا، ذلك أنها نعمت في عهد الأشراف العلويين بالاستقرار والأمن، ونالت عناية خاصة منهم، حيث أصبحت رمزا للحضارة المغربية، كما أن القرويين أضحت منارة للعلم والاشعاع الثقافي، وكان على رأس مصلحيها السلطان سيدي محمد بن عبدالله .

ولذلك فوضع الأزمة كان من إملاء العبيد وتحت ضغطهم ونهمهم المتزايد للمال، ولم يكن فعلا إراديا . ولا يفوتنا التأكيد على أن المدينة ظلت عاصمة المغرب إلى أن حول اليوطي العاصمة إلى الرباط. وهذا الماضي يؤكد أن فاس كان لها مكانة خاصة، ولا زالت إلى اليوم تحمل اسم العاصمة العلمية للبلاد.

---

[29] القادري ، نشر المثاني ج3 ص 404 ـ 405